الفنون النثرية: (الرواية)

لا شك أن فن القص يضرب جذوره إلى عصور غابرة، وليس دخيلا ولا سليل الثقافة الغربية، إذ نجد القصص القرآني وقصص الجاهلية ووقائع أخبار الأمم السابقة. ومما ذهب إليه الباحثون أن بدايته كانت مع العصر الجاهلي في قصص قصيرة ترويها مصادر الأدب كـ الأمالي والأغاني، وكان طابع القصة العربية في غالب الأمر أخلاقيا. ونعلم أنه كان للعرب قصص وأساطير وأسمار تعبر عن حياتهم تعبيرًا صادقا منذ العصر الجاهلي، أيام كان النضر بن الحارث يقص قصص الفرس وأساطيرهم،[1] ولم يأفل نجم هذا الفن مع بزوغ العصر الإسلامي، بل اتسع أكثر نتيجة الفتوحات، فجال العرب في كل مكان، واطلعوا على كثير من أقاصيص الفرس والروم والمصريين وغيرهم من الأمم القديمة، فاتسع خيالهم ونمت مواهبهم في فن القصة وتوسعوا في ذلك اتساعا كبيرا[2].

ظلت القصة في اتساع مستمر تتطور بتطور العصور التي نشأت وكتبت فيها، "ولما جاء العصر العباسي اتسعت العناية بالقصة وكثرت القصص والأساطير في الأدب العربي، وألفت فيها كتب كثيرة من ذلك :المحاسن والأضداد للجاحظ، وروايات الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني... ومن أهم القصص العربية: أخبار التوحيدي، والتوابع والزوابع لابن الشهيد، وألف ليلة وليلة، ورسالة الغفران لأبي العلاء، وحي بن يقظان لابن طفيل"[3].

1 ـ محمد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، ج2، دار الجيل، بيروت، ط 1، ص: 734.
2 ـ المرجع نفسه، ص: 734
3 ـ المرجع نفسه، ص: 438

في حين هناك من يرجع نشأة الفن القصصي أو الرواية إلى الغرب نتيجة الاحتكاك والترجمة، ومن هؤلاء "إسماعيل أدهم" الذي يفسر الأدب القصصي في القرن العشرين منقطعًا عن الأدب العربي في بنيته التاريخية، ويراه شيئًا جديدًا أوجده الاتصال بالغرب.[1]

ووفق وجهة هؤلاء فإن القصة سليلة الثقافة الغربية نتيجة الاحتكاك بالآخر. ويرى بطرس البستاني الرأي نفسه فيقول: "لا يختلف اثنان في أن الرواية نشأت في العصر الحديث فنًا مقتبسًا من الغرب أو متأثرا به تأثرا شديدا"[2].

وإلى مثل هذه الآراء يذهب الطاهر وطار، مدعيًا أن الرواية في الأصل فن جديد في الأدب العربي، لا نقول دخيلا على اللغة العربية، وإنما فن اكتشفه العرب فتبنوه، مثلما اكتشفوا في بداية نهضتهم المنطق فتبنّوه والفلسفة فتبنوها[3].

الرواية في العصر الحديث:

حدثت في العصر الحديث أو عصر النهضة كما يسمى تغيرات شاملة على جميع الأصعدة، وربما كان الحظ الأوفر للأدب والفنون، "فلما أثمرت بواكير النهضة الحديثة، اقتبس أدباؤنا، فيما اقتبسوا من أدب الغرب، القصة الإفرنجية بقواعدها ومناهجها وموضوعاتها، وكان أول من فعل ذلك اللبنانيون، كسليم البستاني وجرجي زيدان، ثم عالجها بعد ذلك المصريون معالجة المحاكاة لما قرأوا من تلك القصص...". [4] ومع بواكير النهضة لجأ الأدباء إلى الاقتباس من الفنون الغربية، فكان اللبنانيون السباقين إلى ذلك، ثم توالى الاقتباس على يد العديد من الأدباء كما سبق الذكر، وكان أول ما ظهر "طائفة من القصص والأقاصيص المترجمة، بعضها كان

1 ـ صالح مفقودة، أبحاث في الرواية العربية، منشورات مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر بسكرة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الأدب العربي، ص: 11.
2 ـ المرجع نفسه، ص: 11.
3 ـ المرجع نفسه، ص: 11.
4 ـ أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعليا، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، ص. 433.

أشبه بالاقتباس مبتعدا عن أصله بالحذف أو بالزيادة أو بالتغيير، مثل غصن البان لنجيب الحداد، والفضيلة لمصطفى المنفلوطي، والبؤساء لحافظ إبراهيم".[1]

كانت هذه القصص المبعث الأول الذي كان حافزا ودافعا للإنتاج الأدبي، فعلى الرغم مما تميزت به القصة في بدايتها نتيجة الترجمة غير الدقيقة، إلا أنها كانت على علاتها أساسا للنهضة القصصية في الشرق العربي، احتذاها الشباب واستوحاها الكتاب، لأن المدرسة العربية في مصر وفي غير مصر ظلت على أساليب البلاغة القديمة، ولم يدخل في برامجها الأدبية تعليم الفن القصصي والروائي على الطريقة المرسومة في المدرسة الغربية. [2]

جعلت القصة العربية لنفسها مكانا مميزا وطابعا خاصا مستقلا لها، فتناولت موضوعات خاصة بها، ويرجع الفضل في ذلك إلى الترجمة، ففي أواخر القرن التاسع عشر من العصر الحديث حين نشطت حركة الترجمة، ظهرت قصص مترجمة عن الأدب الغربي، كقصة مغامرات تيليماك التي ترجمها رفاعة رافع الطهطاوي رائد الترجمة الحديثة.[3]

كانت هذه الترجمات والاقتباسات سببًا مباشرًا في تطور الفن القصصي، فما كان للقصة العربية إلا أن تأخذ لنفسها مكانًا بين الآداب والفنون، "فأخذت تتميز بطابعها وتستقل بموضوعها، فظهرت طائفة من القصص الفنية القوية مثل زينب لمحمد حسين هيكل، والأيام لطه حسين، وإبراهيم الكاتب للمازني، وسارة للعقاد، وأهل الكهف لتوفيق الحكيم، وبداية ونهاية لنجيب محفوظ"[4].

يرى بعض الباحثين أن تلخيص الإبريز في تخليص باريز يمثل مطلع الفن القصصي في الأدب العربي الحديث، ثم يذكرون المويلحي وجرجي زيدان، ويتطرقون إلى المترجمين والمقتبسين، ثم يحطون الرحال عند رواية زينب لمحمد حسين هيكل، التي سماها صاحبها

1 ـ أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعليا، د.ط، د.ت، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، ص: 433.
2 ـ المرجع نفسه، ص. 433.434.
3ـ حامد حنفي داود، تاريخ الأدب الحديث: تطوره، معالمه الكبرى، مدارسه، ديوان المطبوعات الجامعية، 1443هـ، ص: 160.
4 ـ المرجع نفسه، ص: 434.

«مناظر وأخلاق ريفية بقلم فلاح مصري»، وقد عدّت هذه الرواية فتحًا في الأدب المصري، بل عدّت أول رواية واقعية في الأدب العربي الحديث.[1]

سعى جرجي زيدان إلى تقليد الرواية التاريخية القصصية، فكان من أوائل من توجهوا إلى هذا اللون من الكتابة، غير أن أعماله ظلت بعيدة عن النضج الفني في التصوير القصصي. وفي الوقت نفسه لم تتوقف حركة الترجمة، بل ازدادت نشاطا واهتماما بنقل القصص الأجنبية إلى الأدب العربي الحديث. فظهر أدباء عمدوا إلى تمصير القصص الغربية وترجمتها إلى اللغة العامية، كما فعل عثمان جلال. ثم جاء جيل آخر آثر الالتزام باللغة العربية الفصحى، وحرص على تقديم ترجمات أدبية رفيعة الأسلوب ومبتكرة التعبير، ومن أبرزهم مصطفى لطفي المنفلوطي في ترجمته لقصة بول وفرجيني، وحافظ إبراهيم في ترجمته لرواية البؤساء لفيكتور هوغو بأسلوب أدبي متميز وفي الحجم نفسه.[2]

لبس هذا الفن ثوبا جديدا، فكان العصر الحديث عصر نهضة وتطور نتيجة الاحتكاك بالغرب، فكان للترجمة نصيبها وحظها الأوفر في التأثير، حتى صار الأدباء ينسجون على منوالها، فحاولوا تمصير الفن القصصي، وكل ذلك أدى إلى الإبداع والابتكار. وبعد الحرب العالمية الأولى ظهرت أول محاولة في القصص الحديث حين حاول الأدباء الابتكار دون أن يترجموا أو يتأثروا تأثرا مباشرا بالأدب الغربي، وتنوعت هذه المحاولات الفنية في عالم القصة، فمن الأدباء من حاول النسج القصصي في إطار قديم من البلاغة اللفظية والسجعة المستملحة مثل المويلحي في حديث عيسى بن هشام، ومنهم من حاكى التاريخ القصصي في تراثنا في صورة جديدة متحررا من النسج القديم سواء في الموضوع أو الأسلوب، مثل محمد فريد أبو حديد وأحمد باكثير وعلي الجارم[3].

1 ـ صالح مفقودة، أبحاث في الرواية العربية، مرجع سابق، ص: 11.
2 ـ المرجع نفسه، ص: 161.160.
3 ـ حامد حنفي داود، تاريخ الأدب الحديث: تطوره، معالمه الكبرى، مدارسه، مرجع سابق، ص: 161.

وتواتر الادعاء بأن هذه المحاولات، على الرغم من ضخامة الجهد المبذول فيها، لا تعد قصصًا من النوع الإنشائي الكامل الابتكار، وإنما هي أمشاج من المحاكاة والتصوير، أما أول كاتب قصصي مبتكر فهو محمد حسين هيكل في قصته المشهورة زينب التي ألفها سنة 1913 وهو في فرنسا، وفيها نلحظ الابتكار في الموضوع والأسلوب، كما أنها في الوقت نفسه تصور الروح المصرية الخالصة في الريف.[1]

ظلت الكتابات الأولى محاكاة وتصويرا، إلى أن كتب محمد حسين هيكل رواية زينب، فحملت ملامح الابتكار والتجديد على مستوى الموضوع والأسلوب، أضف إلى ذلك ترجمتها للروح المصرية الخالصة. وكانت رواية زينب فاتحة الفن الروائي في مصر كما سبق الذكر، إلا أن هناك من يشير إلى الموقف المتناقض لصاحبها، فهو "اعتراض عن كونها فاتحة الفن الروائي، فبطرس البستاني لم يجرؤ في البداية على تسميتها رواية، ثم يعدّها في مواضع أخرى فتحا جديدا في الأدب المصري. ويرى بطرس أن هذه الرواية تتميز بميزتين هما: الفردية... والوطنية والمصرية[2]. أسماها صاحبها "مناظر وأخلاق ريفية" بقلم فلاح مصري.[3]

يرى بطرس أن رواية الأجنحة المنكسرة لخليل جبران تتحقق فيها هاتان الميزتان، وقد نشرت قبل زينب بأكثر من سنتين، ومع ذلك لم تعد الرواية الأولى.[4]

لعل نشر رواية الأجنحة المنكسرة قبل رواية زينب هو ما جعل بطرس يجعل الريادة لها، "بينما تشير إيمان القاضي إلى المحاولة التي قام بها سليمان البستاني، الذي نشر محاولته الروائية على صفحات مجلة الجنان البيروتية، وأسماها "الهيام في جنان الشام" عام 441هـ... وبهذا نرى أن الباحثين المصريين، على الخصوص، يجعلون من مصر سباقة في ميلاد

1 ـ حامد حنفي داود، تاريخ الأدب الحديث: تطوره، معالمه الكبرى، مدارسه، مرجع سابق، ص: 161.
2ـ صالح مفقودة، أبحاث في الرواية العربية، مرجع سابق، ص: 12.11.
3 ـ المرجع نفسه، ص: 12.11.
4 ـ المرجع نفسه، ص: 11.

الرواية، أما بقية الأقطار فإنها عرفت نشأة الرواية بعد ذلك، ولم تعرفها في زمن واحد، ذلك أن لكل بلد ظروفه الاقتصادية والسياسية والتاريخية.[1]

وعلى الرغم من أن روايتي الأجنحة المنكسرة والهيام في جنان الشام الأسبق تاريخا، إلا أن مصر جعلت الريادة في هذا الفن لرواية **زينب** لمحمد حسين هيكل.

نشأة الرواية في المغرب العربي:

تجمع جلّ الدراسات على أن نشأة الرواية الفنية في أقطار المغرب العربي حديثة الظهور، بالرغم من وجود تراث سردي لدى هذه الشعوب تشترك في بعضه مع دول المشرق العربي، وتتميز في بعضه الآخر بفعل تميزها التاريخي، نظرًا لما شهدته المنطقة من حضارات.

وإذا كانت نشأة الرواية متأخرة نسبيا في أقطار المغرب العربي، فإن تطورها كان سريعا، إذ كانت فترة السبعينيات من القرن العشرين فترة تشكل التجربة الروائية المغاربية التي تحطمت معها مقولة "بضاعتنا ردت إلينا"، بل صرنا أمام تطور فعلي في مجال السرديات إبداعا ونقدا من جهة، وإبداعا وتلقيا من جهة أخرى[2].

الرواية الجزائرية:

لا شك أن الظروف التي مرت بها الجزائر كانت سببا في تأخر الفن القصصي أو الروائي، خاصة الرواية المكتوبة باللغة العربية، فهناك ظروف كثيرة أسهمت في جعل من يكتب باللغة القومية مجهولا إلى حد ما، في حين أسهمت في التعريف بمن يكتب باللغة الأجنبية في الجزائر، حتى إن بعض الدارسين للأدب الجزائري الحديث في البلاد العربية حين عرضوا لهذا الأدب درسوا الآثار المكتوبة باللغة الأجنبية ولم يشيروا من قريب أو بعيد إلى من يكتب باللغة القومية...[3]

1 ـ صالح مفقودة، أبحاث في الرواية العربية، مرجع سابق، ص: 11.
2 ـ المرجع نفسه، ص: 13.12
3 ـ عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، 1974.1830، دار الكتاب العربي2009، ص: 235.

لقد حاربت فرنسا اللغة العربية والقومية للشعب الجزائري، فكانت سببا واضحا في تأخر هذا الفن، وربما يرجع سبب تأخر ظهور الرواية الجزائرية إلى كون هذا الفن صعبا يحتاج إلى تأمل طويل وصبر وأناة، ويتطلب ظروفا ملائمة تساعد على تطوره، وفي مقدمة هذه العوامل أن الكتاب الجزائريين الذين كتبوا باللغة القومية اتجهوا إلى القصة القصيرة لأنها تعبر عن واقع الحياة أثناء الثورة، التي أحدثت تغيرا عميقا في الفرد، فكان أسلوب القصة ملائما للتعبير عن الموقف أو اللحظة الآنية وعن التجربة المحدودة بحدود الفرد[1].

أما الرواية فإنها تعالج قطاعا واسعا من المجتمع، بشخصيات تختلف اتجاهاتها ومشاربها، وتتفرع تجاربها وتتصارع أهواؤها ومواقفها، ومن ثم كان الكاتب يحتاج إلى تأمل طويل، كما أن الرواية تتطلب لغة طيعة مرنة قادرة على تصوير بيئة كاملة، وهذا ما لم يتوفر لها إلا بعد الاستقلال. وفوق هذا فإن كتاب الرواية الجزائرية لم يجدوا أمامهم نماذج جزائرية يقلدونها أو ينسجون على منوالها، كما كان الأمر بالنسبة للكتاب باللغة الفرنسية الذين وجدوا تراثا غنيا ونماذج جيدة في الأدب الفرنسي[2].

ومع ذلك لم يمنع هذا من وجود محاولات روائية، فكانت محاولة واحدة هي غادة أم القرى لأحمد رضا حوحو، وهي رواية من النوع القصير إن صح هذا التعبير، لكنها جاوزت في حجمها مفهوم القصة القصيرة بكثير، ناهيك عن أن الكاتب نشرها مستقلة في مجلد واحد[3].

اعتبر بعض النقاد أن بدايات الرواية الجزائرية تعود إلى السبعينيات، رغم وجود بذور ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية يمكن ملاحظة بدايات ساذجة للرواية الجزائرية العربية فيها، سواء في موضوعاتها أو في أسلوب بنائها الفني، ومن ذلك قصة أحمد رضا حوحو غادة أم القرى

1 ـ عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، 1830.1974، مرجع سابق، ص: 237.
2 ـ المرجع نفسه، ص: 238.
3 ـ عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، 1931.1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الجزائر، 1983، ص: 1991.

التي تعالج وضع المرأة ولكن في بيئة حجازية،[1] وتدور أحداثها حول الحجاب وما ينشأ عنه من كبت، وحول التقاليد البالية وما تسببه للناس من آلام وشقاء[2].

على الرغم من كتابتها في بيئة حجازية، فإنها تعالج وضع المرأة الجزائرية والكبت الذي كانت تعاني منه، وقد أهداها أحمد رضا حوحو إلى المرأة الجزائرية قائلا: "إلى تلك التي تعيش محرومة من نعمة الحب، من نعمة العلم، من نعمة الحرية... إلى تلك المخلوقة البائسة المهملة في هذا الوجود، إلى المرأة الجزائرية أقدّم هذه القصة تعزية وسلوى!"[3].

لا يمكن تناول تاريخ الرواية الجزائرية بمعزل عن التاريخ الجزائري، فقد ربطها صالح مفقودة بثلاث محطات تاريخية كبرى، هي: ثورة الفلاحين، وأحداث 14 ماي 1945، وثورة أول نوفمبر 1954. فترتبط المحطة الأولى بظهور حكاية العشاق في الحب والاشتياق لمصطفى بن إبراهيم، التي عكست نتائج الحملة الفرنسية على الجزائر، وإن لم تصور ذلك صراحة.[4]

أما المحطة الثانية فتمثلت في أحداث 14 ماي 1945 الناتجة عن القهر الاستعماري، وأما المحطة الثالثة فهي ثورة أول نوفمبر 1954 التي انصهرت فيها كل الأحزاب وتغير معها أسلوب الحياة والتعامل مع الآخرين، وفي هذه الفترة ظهرت أعمال روائية مثل الطالب المنكوب لعبد المجيد الشافعي، والحريق لنور الدين بوجدرة[5].

1 ـ عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، 1974.1830، مرجع سابق، ص: 237.
2 ـ عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، 1954.1931، مرجع سابق، ص: 1991.
3 ـ المرجع نفسه، ص: 1993.
4ـ ينظر: صالح مفقودة، أبحاث في الرواية العربية، مرجع سابق، ص: 18.
5 ـ المرجع نفسه، ص: 19.15.